

المعد العاشر

١٠ (أكتوبر) ١٩٦١

السنة التاسعة

No. 10 Oct. 1961

9ème année

الأداب

مَجَلَّة شَهْرِيَّة تَعْنِي بِشُؤُونِ الْفِكْرِ

ص.ب. ٤١٢٣ - تلفون ٢٣٢٨٣٢ - بيروت

AL-ADAB REVUE MENSUELLE CULTURELLE

BEYROUTH - LIBAN - B.P. 4123

Tél. 232832

رئيس التحرير

والمدبر المسؤول

الدكتور سهيل إدريس

Rédacteur en chef et

directeur

SOUHEIL IDRIS

الديمقراطية وسيلة لتحقيق أهداف القومية العربية

بقلم الدكتور عبد الكريم عبد الكاظم

عن الاهداف الحقيقية للحياة القومية ، نعني تحرير الانسان وتفتيحه ضمن تربته القومية ، والعمل على تحقيق التوازن بين القوميات المختلفة من اجل سعادة الانسان والارتقاء باسانيته .

ولا نهدف هنا الى الحديث عن عمق الصلة التي تصل الفكرة القومية بالفكرة الانسانية . وجل ما نريد ان نؤكد ان النزعة القومية تفقد معناها اذا لم تكن الاطار الطبيعي لتحقيق تفتح الانسان الكامل .

- ٢ -

والتذكير بهذه الحقيقة يهدد اماننا السبيل لبيان مدى الارتباط بين القومية العربية وبين الديمقراطية . فالقومية تهدف الى تفتيح الوجود الانساني للفرد وافساح المجال امام كامل طاقاته ليما تعطي وتزدهر وتنشر الخير والعطاء للامة وللانسانية . وهي اد تضع نصب عينيها مثل هذا الهدف الانساني الفني ، تلثقي التقاء طبيعيا بالديمقراطية كوسيلة لتحقيق اهدافها . فالديمقراطية ان كانت تعني شيئاً فهي تعني انها الوسيلة المثلى لتحرير الانسان وتيسير تكامله الدائم وتفتيح قيمه الانسانية الاصيلية . ومهما تختلف التعريفات التي تقدم للديمقراطية بظل من الصحيح دوماً وابدأ ان جوهرها احترام الانسان كفاية في ذاته ، واتخاذها هدفاً لا وسيلة . وقد وكدت النزعات الحديثة في الديمقراطية اليوم ان العنصر الاساسي في الديمقراطية هو احترام الشخصية الانسانية . وهذا الاحترام ليس احتراماً سلبياً فحسب ، قوامه عدم النيل منها وعدم استغلالها واستثمارها ، وانما هو فوق هذا وقبل هذا احترام ايجابي قوامه تحقيق الظروف المثلى لتفتحها وازدهارها والوصول بها الى كامل عطائها . ومثل هبة الظروف الميسرة لتفتح الشخصية الانسانية هي بالتعريف

لا تتخذ أي فكرة قوية معناها السليم ، الا اذا انعقدت الصلة العميقة بينها وبين أفكاره الانسانية . ويظل هدف الحياة القومية الاول الوصول الى تفتيح الحياة الانسانية لدى المواطن على اوسع مدى ممكن . وفؤام النظرة القومية الايمان بان الاطار الامثل لتفتح الانسان كاسان هو اطار تربته القومية وهوانه القومي . ففي هذا الاطار يستطيع الفرد ان يزدهر ويستخرج كامل امكانياته وطاقاته . وفي هوانه ييسر له ان يرقى الى اسنى مراتب الازدهار النفسي .

والافكار القومية السليمة عبر التاريخ كانت مخلصاً دوماً لهذا المنزع . ونشأة الحركات القومية في العالم في بداية القرن التاسع عشر ، تنبئ عن عمق هذه الصلة التي تقوم بين النزعة القومية والنزعة الانسانية . اذ ظهرت الافكار القومية كما نعلم لدى الشعوب المضطهدة والمجزأة المقطعة الاوصال ، وكان هدفها تحرير الشعوب واقرار حقها في تقرير مصيرها وخلق عالم متآزر لا تطفى فيه امة على امة ، وتحقيق وجود الانسان الكامل عن طريق تحريره من طغيان اخيه الانسان . هكذا كان شأن الحركة القومية الايطالية منذ بداية نشأتها في اوائل القرن التاسع عشر ، وهكذا كان شأن الحركة القومية الالمانية بعد حروب الثلاثين ، وشأن القومية السلافية لدى السلاف الغربيين والجنوبيين . لقد ثارت هذه الحركات جميعها لدى امم مضطهدة مهددة خاضعة للسيطرة الاجنبية ، وكان همها ان تناضل من اجل حق الانسان وحرية .

ولم تجانب الحركات القومية هذا الطابع الانساني ، الا عندما انحرفت عن اهدافها الاصيلية واستغلت من اجل العدوان والسيطرة ، على نحو ما حدث في المانيا النازية واطاليا الفاشية . لقد اتخذت القومية اذ ذاك شعاراً لتبرير العنف والعداء ، ووسيلة لسيطرة امة على غيرها من الامم . وبهذا فقدت معناها الاصيلي ، وغدت ابعاد ما تكون

ظروف الحياة القومية التي يعمل فيها المواطنون من أجل سعادتهم المشتركة ، ومن أجل بناء مجتمع تسوده العدالة والمساواة والفرص المتكافئة ، ولا يظلم فيه انسان على انسان ، سواء ضمن حدود الدولة القومية او خارجها .

وهذا الارتباط العميق بين القومية والديمقراطية ، يبين لنا منذ البداية قدسية الديمقراطية ، كما يبين لنا في الوقت نفسه حدود هذه الديمقراطية . فهو يشير منذ بدء الطريق الى ان الديمقراطية لاتتخذ معناها الا كوسيلة لتحقيق الوجود القومي ، وان تفتيح الانسان عن طريقها يرتبط اعماق الارتباط باهداف التعاون القومي والعمل لمصلحة الحياة القومية .

على انه يبين لنا ايضا حدود الفكرة القومية ، اذ يجعل هذه القدرة لصالح الانسان كاسنان ، واد يجنبنا الوضوح في خطأ الاستمساك بالتشكل وسيان الهدف ، يعني حضا اتخاذ القومية مبررا للعدوان على الانسان او اضطهاده او تقييد حريته وفتحها ، سواء ضمن الاطار القومي او خارجه . ذلك ان الفكرة القومية ، حين ترتبط بالاسلوب الديمقراطي تظل مخصصة لهدفها الاصلي ، تعني الانسان ، ولا تنحرف لتتخذ حجة لتبرير العنف او الاقتتار ، ودريعه لاضطهاد الانسان .

ان البديهية الاولى التي نثرا بانفسنا ، هي ان المبادئ التي يضعها الانسان يضعها من اجل الانسان وفي سبيل اتمثال رقيه وتقدمه وبلوغه المراتب الحقة من الوعي الروحي . ولهذا فمن غير الجائز ، مهما تكن المبررات ، ان تتخذ هذه المبادئ ذريعة لاضطهاد الانسان ، وحجة لتضييق عليه ، وامتهان شخصيته الانسانية . ولهذا كان الربط بين الفكرة القومية والفكرة الديمقراطية ، حاميا لكتليهما من الانحراف ومن مزلق طالما الفناها في حياة البشر . انه يحمي الفكرة القومية من ان تصطنع من اجل العدوان ومن اجل اضطهاد الانسان ، داخل الدولة القومية وخارجها . كما يحمي الفكرة الديمقراطية من ان تغدو طارا فارغا ومبدا عديم المحتوى ، وهطافا تستباح من اجله حتى الفوضى ، وحتى استغلال الانسان كاسنان .

- ٢ -

ان آفة المبادئ آفتان كبيرتان . آفة الاطلاق ، وآفة النظرة الواحدة .

اما الاطلاق فهو يذني يقاب الوسيلة الى غاية وهدف ، هو الذي يجعل من المبدأ صورة فارغة عديمة المحتوى ، وحجة وعزاء وبريرا . انه هو الذي يجعل من مبدأ القومية مثلا مبدا يستبيح الانسان وحرياته وكرامته ، حين يغدو مثل هذا المبدأ حذاء صينيا قاسيا ، يصطنع من أجل تبرير كل شيء ، لا من أجل غاياته القومية والانسانية الاصلية . وهو الذي يجعل من مبدأ الديمقراطية شعارا فارغا ، يستخدم في سبيل الحق كما يستخدم في سبيل الباطل ، ويجند حتى للقضاء على الديمقراطية باسم الديمقراطية .

ان المبادئ المتصلة بحياة الامم لاتتخذ معناها الا ضمن جملة البنية الاجتماعية والقومية . وتطبيق أي مبدأ ينبغي ان يكون في نهاية الامر نتيجة التفاعل بين المبدأ كمثل اعلى

وبين جملة الظروف الواقعية التي توجد فيها امة من الامم . ومن شرارة هذا اللقاء بين المبدأ كمثل اعلى وبين الواقع يولد السلوك السليم والتطبيق الخصيب .

واما آفة النظرة الواحدة ، فهي التي تؤدي الى تفسير الامور تفسيراً وحيداً بظنره ويعيم وربما بعوامل اخيرة التي تندرج في احداها . والنظرة الواحدة وليده تعبير خاطيء عاش ردحا من الزمن ، ورافق ظهور تعسّم الحديث ، ثم ما لبث تطور العلم حتى دحضه . وقوام هذا التفسير الخاطيء نظرة ابي العليہ والسببية ، تحاول ان تكشف بين جملة الاسباب التي تحدث ظاهرة معينة ، سواء كانت مادية او اجتماعية ، عن سبب اول تعبيره هو السبب الاصيل ويعتبر الظواهر الاخرى نتيجة له وهتفاله ، وهذه النظرة الحاطه اتحدث اسوا نتائجها عندما طبقت على الظواهر الاجتماعية . فها هنا حاول عدد من الباحثين كما نعلم ان يكشفوا عن عامل اساسي حاسم ، هو المسؤول عن سير الحياة الاجتماعية ، وما سواه تابع وملحق ، على نحو ما فعلت النظرية الماركسية مثلا حين عزلت العامل الاقتصادي وعدته السبب الاب لكل عناصر الحياة الاجتماعية وحين اعتبرت ماسواه من مظاهر الحياة بمثابة ذيل له او مركب ثانوي من مركباته . ومثل ذلك فعلت النظريات التي حاولت ان ترد الظواهر الاجتماعية الى عامل البيئة او عامل العرق .

ولقد ولدت هذه النظرة مآسي كثيرة في فهم الحياة الانسانية ، بل في سلوك السياسي والمذهب السياسي . وجاء العلم الحديث فانبت خطاها في ميدان علوم المادة الجامدة . غير ان الاخذ بها في ميدان العلوم الاجتماعية ظل مستمرا الى حد بعيد . بعد انبت العلم الحديث خطا التفسيرات التي ترد الظواهر المادية الى قانون وحيد او سبب وحيد تتحقق حوله سائر الظواهر ، وبين ان من الواجب ان يحدث انقلاب في ذهننا للاشياء ، عن طريق التفكير بوساطة مبدأ التفاعل المشترك بين العناصر المكونة لها . فالحادثة المادية لاتحدث بنتيجة سبب وحيد ، وانما تحدث بنتيجة تفاعل جملة من الاسباب ، لكل منها وزنه وشأنه ، وليس بينها سبب اساسي واخر ملحق . وهكذا غدا الاحتمال والتعدد ميزتي العلم في عصرنا ، وحل محل التفسير الواحدي للاشياء ، تفسير كلي ينظر الى الاحداث على انها مترابطة متآخدة ، ويستبعد القول بوجود قوة مسببة فذة وشاملة ، هي مفتاح كل شيء .

غير ان هذه النظرة التي اشاعها العلم بعد تطوره ، في ميدان الظواهر المادية لم تنتقل بيسر الى ميدان الظواهر الاجتماعية ، وظل التفسير الواحدي ، التفسير بالسبب الوحيد الفذ ، هو التفسير الغالب ، وكثيرا ما زعم مثل هذا التفسير لنفسه صفة العلمية ، على نحو ما فعل ماركس .

ولا بد ، لنقل الاتجاه العلمي الى ميدان الظواهر الاجتماعية ، من هجر ذلك التفسير الواحدي ، من اهمال النظريات الواحدة الشاملة ، والاخذ بالتفسيرات « التفاعلية » ان صح التعبير ، تعني بالتفسيرات التي تعتبر الظواهر الاجتماعية نتيجة التفاعل بين جملة من العوامل المتعددة ، ليس بينها ما يحتل مقام السبب المنشئ للخلاق .

وآفة الواجدية هذه ، عندما تطبق على المبدأ القومي ،

تتعي تفتيح الانسان الى اقصى مدى ممكن ضمن اطار العمل القومي المتأخي لا بد لها ان تتخذ من الديمقراطية وسيلة مثلى لتحقيق تلك الاهداف ودرء ووقاية ضد الوقوع في صورية الاطلاق وقسوته . وبالمثل ، لا تكزن الديمقراطية مبدأ ذا دلالة ، قابلا لان يطبق ويعطي تمر . معينة ، ألا عندما يرتبط بحياة قومية معينة ، وحين يتكيف مع اهدافها ، ويسير في المسارب التي من شأنها ان تعمق تلك الاهداف .

- ٤ -

هذه الحقيقة الكبرى العامة ، تسري على القومية العربية كما تسري على غيرها ، وتجد في الحركة القومية العربية مجالا خصيبا لها .

فالقومية العربية تهدف ، ككل قومية سليمة ، إلى تفتيح الانسان العربي ضمن الاطار القومي ، وترى في هذا الاطار الاناء الطبيعي لعطاء الفرد العربي وابداعه . وتنظر الى ارتباط المواطن العربي بحياته القومية ، كسياج يمكنه من تحقيق طاقاته الانسانية حتى مداها ، ويطلق لديه قوى الابداع حتى غايتها . وهي تنظر بعد هذا الى هذا الاطار القومي كدرج يقف الامة اخطار العدوان الخارجي، ويمكنها بالتالي من الحفاظ على روحها الانسانية، وعملها من اجل عالم متآخ متعاون . والامة العربية بوصفها امة ما تزال في بداية نهضتها الحديثة ، تنظر الى هذا الاطار القومي نظرتها الى اطار مفصل على قدها ، يقيها من اخطار

انها تجر الى جملة من المزالق ، اهمها شيء من التآليه الخاطيء للمبدأ القومي ، تأليها يجعله قوة صارمة ، يستباح من اجلها كل شيء . كذلك من نتائج هذه الافة عندما تطبق على المبدأ الديمقراطي ان تنظر اليه كعامل حاسم ، كمبدأ ميتافيزيقي ، كفكرة مجردة غير مكسوة بلحم ودم ، وغير مصطبغة بصبغة الظروف الاخرى التي تصاحبها .

ومثل هذا الموقف الموحد ، هو الذي ينتهي في نهاية الامر الى تعصب ضيق ، حين يؤكد ان لا وجود الا للحقيقة واحدة ، وحين لا يدرك ان كل مبدأ قابل لان يعدل بنتيجة تفاعله مع غيره من المبادئ والنزعات .

ان القومية حين تغدو غاية في ذاتها ، وحين تنسى اهدافها الانسانية ، تقع في مثل هذا التفسير الواحدي، وتغدو مطلقا رهيبا ، يخنق الانسان . والديمقراطية حين تأخذ بالتفسير الواحدي ، تنتهي الى تطرف معاد لجوهر الديموقراطية .

وما نريد ان نتابع هذا الحديث العام عن آفات النظرة المطلقة والنظرة الواحدية . والذي قادنا اليه ما قررنا من ان الصلة العميقة القائمة بين الديمقراطية والقومية من شأنها ان تحمي كليهما من مثل هذه التفسيرات المطلقة او الواحدية ، ومن شأنها بالتالي ان تجنب كلا منهما آفات الوقوع في شكلية ليست بذات مضمون ، وفي اطار لا يحفظ شيئا ويبيح كل شيء .

ونتيجة هذا كله ان القومية اذا ارادت ان تظل محكومة باهدافها الاصيلية ، التي هي اهداف انسانية

دار الاداب تقدم هذا الشهر

عاصفة على السكر !

بقلم

جان بول سارتر

ترجمة عابدة مطرجي ادريس

- * الكتاب الذي يصف نضال كوبا ورئيسها كاسترو ضد الاستعمار الاميركي
- * الكتاب الذي يبدو فيه الاديب الوجودي الكبير نصيرا لكل بلد يسعى الى التحرر من السيطرة الاجنبية .
- * الكتاب الذي ما يزال يثير ضجة كبيرة في اوساط العالم السياسية

تسلط الدول الكبرى ، ويكون عملها له جزءاً من عملها
الانساني الشاهل في سبيل حق الشعوب في تقرير
مصيرها بنفسها ، ضمن عام تتنازعه قوى متخاصمه
كبرى ، وما يزال يسوده التحكم ولطفيان . وكلا المطلبين
من مطالب القومية العربية يحتاج الى ان يتذرع
بالديمقراطية من اجل تحقيق اهدافه . والمطلب الاول
خاصة ، يعني تفتيح طاقات الانسان العربي وقوى الابداع
لديه لا يمكن ان يتحقق الا عن طريق الديمقراطية . ذلك
ان المبدأ الاساسي من مبادئ الديمقراطية كما ذكرنا هو
مبدأ احترام الانسان واتخاذها غاية لا وسيلة ، وافساح
المجال بالتالي امام امكانياته وطاقاته كما تفتح وتزدهر .
والجو الديمقراطي الذي يتجلى في الاعتراف للأفراد
بحرياتهم الاساسية ، هو السبيل الوحيد لتفتح الانسان
وتقدمه وتجاوزه ذاته باستمرار . وليست حرية التعبير
والتفكير والمناقشة الحرة في نهاية الامر سوى الادوات
اللازمة لتحقيق انفتاح الفرد على الابداع والعطاء حتى
نهايتهما .

وإذا اردنا ان نمضي في الموضوع الى اعماق من هذا
قلنا ان احترام الشخصية الانسانية ، الذي هو جوهر
الديمقراطية ، يستلزم اولاً وقبل كل شيء اللجوء في
معامله هذه الشخصية الانسانية الى الوسائل الانسانية
التي من شأنها ان تحترمها وتفتحها من داخلها ، لا ان
تنتهكها او تقصرها على الافكار والآراء فسرّاً . وتظل السمة
الاساسية للاسلوب الديمقراطي الاعتماد على الفعالية
الداخلية العميقة للانسان ، وجعله سيد افكاره ، بدلا من
اغتيابه فكراً ونفسياً وبدلاً من السطو عليه بافكار مبيتة
معدة سلفاً . ومن الافات التي تتعرض لها الديمقراطية
الحديثة ، حتى في اكثر الدول اخذاً بالمبدأ الديمقراطي ،
اللجوء الى تقديم الآراء والافكار المبيتة الجاهزة ، وعدم
افساح المجال امام الجهد الذاتي المستقل في اقتناء
الافكار وهضمها . ان الاطعمة الفكرية الجاهزة التي يقصر
عليها الناس دون ان يهضموها ، تكاد تغدو صفة ملازمة
لعصرنا الحديث ، لاسيما بعد انتشار الوسائل الديمقراطية
الواسعة ، تعني الصحافة والاذاعة والتلفزيون والطباعة .
وتقديم افكار غير مطبوخة ، وعموميات غير واضحة ،
ومحاولة غرسها في اذهان الناس ، عن طريق الوسائل
الانفعالية ، من اهم الافات التي تتعرض لها الديمقراطية
في عصرنا ، والتي ينبغي ان تعمل على تجاوزها ان اردت
ان تحافظ على جوهرها وحقيقتها .

وهذه الناحية تقودنا الى استطراد قصير يردنا الى
ما كنا نقرره منذ حين ، وهو ان الديمقراطية ، كأي مبدأ ،
لا يجوز ان تفهم على انها مطلق لا يخضع لظروف الزمان
والمكان . ذلك أن ظروف الحياة المعاصرة وانتشار ادوات
النشر هذا الانتشار الهائل ، يخلق شروطاً جديدة لعمل
الديمقراطية ، لم تكن قائمة من قبل ، لا بد ان تؤخذ بعين
الاعتبار وان تفرض على الديمقراطية ، مشكلات جديدة
وحلولاً جديدة . . .

ولندع هذا ولنعد من جديد الى ما يترتب على الاخذ
بالمبدأ الديمقراطي من احترام للشخصية الانسانية . ولنقل
ان هذا الاحترام الذي هو اهم ما ينبغي ان تحرص عليه
الديمقراطية ، هو الذي تقع عليه في تاريخنا العربي وفي
تاريخنا الاسلامي . ولعل فكرة الكرامة الانسانية هي

الفكرة التي استبقت لدى اجدادنا العرب مفهوم
الديمقراطية الجديد . وكلنا يعلم ان على رأس القيم التي
آمن بها العرب في جاهليتهم واسلامهم الحفاظ على كرامة
الانسان . والذي يطالعنا في التاريخ العربي كله هو هذه
الكرامة الانسانية التي تشمخ دوماً وتشرئب . وفي معاملة
العرب لرعاياهم وفي معاملتهم للدول التي فتحوها اكبر
الدلائل على عمق ايمانهم بالشخصية الانسانية وبالكرامة
الانسانية . وفي القرآن الكريم « ولقد كرّمنا بني آدم » .
وما تزال قولة عمر بن الخطاب التي وجهها الى عمرو بن
العاص ترن في مسمع التاريخ . « متى استعبدتم الناس
وقد ولدتهم امهاتهم احراراً » . ومن الجدير بالذكر ان
عمر بن الخطاب قال هذه الكلمة احتجاجاً على معاملة
« ابن الاكرمين » لرجل قبلي ، مما يشهد على عمق معنى
الكرامة الانسانية لدى العرب وما يبين أنها ليست وقفاً
لديهم على رعاياهم ، بل هي تجاوز هؤلاء الرعايا الى كل
انسان .

هذا الاحترام للكرامة الانسانية وللشخصية
الانسانية الذي حرص عليه العرب في عصور تاريخهم ،
يجعل من الديمقراطية اسلوباً خصيباً منتجاً ، ويربطها
مباشرة بفكرة التفتح القومي والابداع القومي . فتفديس
الشخصية الانسانية ، هو الوسيلة التي تفسح المجال امام
الانسان كيما يعطي ويبعد ويتقدم ويتجاوز ذاته
باستمرار . ولا سبيل الى تطوير الانسانية يوماً بعد يوم ،
ورفعها من مستوى الشرور الى مستوى الخير ، الا عن
طريق افساح المجال امام قوى الوعي الروحي كيما تتقدم
وتتجاوز ذاتها وتعمل على خلق الانسان الجديد دوماً .

ان امتلاك الفرد لآرائه وافكاره وامتلاكه لذاته
واستقلاله الشخصي يعينان معنى عميقاً جداً بالقياس الى
مشكلة الانسان جملة . فهما الوسيلتان الناجعتان اللتان
تجعلان الوعي الانساني يتقدم ويتطور ويتجاوز ذاته
باستمرار عاملاً على تجديد قيم المجتمع وعلى تجديد قيمه
الانسانية . وبدون هذا المجال المفتوح امام الوعي الفكري ،
كيما يتقدم ويتجاوز ذاته ، لا يمكن ان يقوم في المجتمع
أي تقدم ولا يمكن ان تكون فيه أي حركة الى امام .
والانسانية تراوح في مكانها ، ان هي فرضت على الناس
قيوداً في الفكر والرأي ، وان هي حبست افكارهم ضمن
اطار لا يتجاوزه .

ان جوهر الوجود الانساني انه يصبو الى تجاوز
ذاته باستمرار ، ومن صاب بنيه الوعي انه ينزع الى ان
يتجدد ويناقش ذاته ويرقى الى آفاق اسماي فاسمى .
ومثل هذه الصبوات التي نجدتها في الوجود الانساني وفي
الوعي الانساني ، هي امل الانسانية ، ولا بد لها كيما تأخذ
مداها من ان تحترم ويفسح المجال بينها وبين الانطلاق .

ومن هنا كانت الديمقراطية هي الوسيلة المثلى
لتفتح الانسان وتجاوزه لذاته وتطويره لمجتمعه وقيم هذا
المجتمع . وبهذا ترتبط اعماق الارتباط بالقومية .
فالقومية تفتح للانسان وتطوير للمجتمع وقيم المجتمع .
وليست القومية مفهوماً ساكناً جامداً ، وانما هي حركة
دائبة متصلة من اجل تجديد بناء المواطن ضمن الكيان
القومي . وهذا التجديد هو والديمقراطية صنوان .

الاجتماعية الى دكتاتورية ذميمة اذا نصبت نفسها كغاية تستباح في سبيلها الحريات السياسية والكرامة الشخصية، على نحو ما وقع في بعض البلدان الاشتراكية. والهام في هذا التلازم بين الديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية ، ان ندرك انه ينبغي ان يكون تلازما متواقتا ، يتم في وقت واحد . ومن تشويه الامور ان نقسم الزمن الى مراحل ، وان نزع ان العمل للديمقراطية الاجتماعية ينبغي ان يسبق العمل للديمقراطية السياسية ، او العكس .

فلا سبيل الى تحقيق الديمقراطية السياسية الا بالوسائل الديمقراطية . والاعتداء على الديمقراطية ، ولو باسم مرحلة موقته ، كما تفعل النظم المجموعية ، يعرض الديمقراطية في جوهرها للخطر والانحراف ، ويجعل الوصول اليها مطلبا وهوما . وفي هذا المجال يمكن ان نستعير تلك الكلمة التي قالها احد الكتاب عن الحضارة الانسانية فنطبقها على الديمقراطية نفسها فنقول « ان قوامها ان نعلم الناس ان يحكموا انفسهم بانفسهم عن طريق السماح لهم بأن يفعلوا ذلك » .

- ٦ -

واذا اردنا ان نلجأ الى لغة اخرى ، قلنا ان المشكلة الكبرى في الديمقراطية ، هي مشكلة التوفيق بين مبادئ غالبيين من مبادئ الديمقراطية ، هما مبدأ الحرية من جهة ومبدأ المساواة من جهة ثانية . والتوفيق بين هذين

- التتمة على الصفحة ٥٠ -

المجموعة السيكولوجية

تعالج مشاكل الحياة النفسية على ضوء العلم

صدر منها :	ق.ل
تغلب على الخجل ترجمة عبد اللطيف شراره	١٠٠
سيطر على نفسك	١٠٠
تغلب على التشاؤم	١٠٠
سلطان الإرادة	١٠٠
مفتاح الحظ	١٠٠
سحر الشخصية	١٠٠
كيف تكسب المال	١٠٠
تغلب على القلق	١٠٠
تغلب على الخوف	١٠٠
الايحاء الذاتي	١٠٠
التنويم المغناطيسي	٢٥٠
سعادتك بيدك	١٥٠
طريق النجاح	١٥٠

الناشر : دار بيروت للطباعة والنشر

على ان احترام الشخصية الانسانية الذي هو صلب الديمقراطية وعصبها المفهوم ، لا يعني فقط هذا التمكين للوعي كما يتفتح وينطلق ويجاوز ذاته ويتجه شطر القيم الروحية المثلى ، قيم الحق والخير والجمال . وانما يعني شيئا اخر لا يفصل عن المعنى الاول ، هو ازالة العوائق الخارجية المادية التي تفل نشاط الفرد وتعطل فورة الابداع والعطاء لديه . فمن الذهني ان تفتح الانسان التفتح الكامل ، لا يمكن ان يتم اذا كان مثقلا بالقيود الاقتصادية التي تستعبده والتي تعطل قواه. وفي المجتمع العربي خاصة ، تثوي القوة الحقيقية الخلاقة للامة العربية، في تلك الكتلة الكبيرة من الجموع الشعبية الفقيرة المحرومة . وهذه القوى الخلاقة معطلة لدى هذه الجموع بسبب سوء احوالها الاقتصادية . والعبودية المادية التي تخضع لها الجماهرة الكبرى من ابناء الوطن العربي تجعل امكانيات الشعب العربي مهدورة وطاقاته مقتولة غير مستغلة . ولهذا فلا سبيل الى تحقيق العطاء القومي والابداع القومي الا عن طريق اسلوب ديمقراطي يهب للديمقراطية معنى التحرر من انقال القيود الاجتماعية والاقتصادية ، كوسيلة لبلوغ المعنى الثاني للديمقراطية نعني تفتيح طاقات الفرد واطلاق قوى الابداع لديه ليعطي ويبدع في حرية وتجدد .

واذا اردنا تعبيرا اخر ، قلنا ان الشق الاول من الديمقراطية يتصل بما يدعى باسم الديمقراطية السياسية نعني تحقيق حرية الرأي والكلام والاعتقاد ، وحكم الشعب بالشعب ، عن طريق الوسائل الديمقراطية المعروفة . اما الشق الثاني من الديمقراطية فيعني الديمقراطية الاجتماعية، اي تحقيق الفرص المتكافئة امام افراد الشعب وتحريرهم من عبوديتهم لوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية ليكونوا قادرين حقا على امتلاك حريتهم السيستية وتصريفها .

وما نريد ان نعود ههنا الى حديث الديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية . وما نريد ان نعدد التهم التي يوجهها الاخذون بالديمقراطية الاجتماعية الى المنتصرين للديمقراطية السياسية . ونكتفي بالقول ان هذا الصراع في اعماقه صراع زائف ، يتجاوزه تطور الاحداث . فالديمقراطية السياسية لا معنى لها بدون الديمقراطية الاجتماعية ما في ذلك شك ، والديمقراطية السياسية ، كما يقول اعداؤها ، تغدو وهما وتضللا اذا لم يتحقق التحرر الاقتصادي والاجتماعي ، واذا كانت الوسائل التي يدعونها ديمقراطية ، من صحافة واذاعة ودعاوة وغيرها، ملكا للذين يتصرفون في اموال الناس فيتصرفون بالتالي في افكارهم ومعتقداتهم . غير ان هذا ينبغي الا يوهننا ان الديمقراطية الاجتماعية هي الديمقراطية الوحيدة . فمن الصحيح ايضا ان الديمقراطية الاجتماعية تفقد معناها ان لم تهدف الى تحقيق الديمقراطية السياسية. وتحقيق الديمقراطية السياسية ، اي الحريات الفردية للمواطنين ، ينبغي ان يظل الهدف النهائي من الديمقراطية الاجتماعية ، وينبغي ان تظل هذه وسيلة من وسائل بلوغ الديمقراطية السياسية في شكلها الكامل السليم . وكما ان الديمقراطية السياسية تنقلب زيفا وخداعا اذا لم ترافقها الديمقراطية الاجتماعية ، كذلك تنقلب الديمقراطية

الديمقراطية وسيلة لتحقيق اهداف .

- تمة المنشور على الصفحة ٥ -

المبدان مسألة واجهت دوما الحريصين على الديمقراطية . ولعل الحل الذي يعطى لهذه المسألة في بلد من البلدان هو الذي يحدد مبلغ قدرتها على تطبيق الديمقراطية تطبيقا صحيحا سليما .

ذلك ان مبدأ الحرية وحده لا يمكن ان يكون هدف الديمقراطية ، ولا بد لهذا المبدأ فيما يأخذ معناه ، ان يسير جنباً الى جنب مع المبدأ الثاني ، يعني المساواة . ويستطيع ان نقول ان مبدأ الحرية هو فوam الديمقراطية السياسية بينما مبدأ المساواة فوam الديمقراطية الاجتماعية . ومعنى هذا ان كلا المبدان في نظرنا لا يصح بدون الآخر . فالحرية ينبغي ان تهدف في نهاية الامر الى تحرير الفرد من قيوده ومن جميع أنواع العبودية التي يحضغ لها ، ومتل هذا لا يتم إلا اذا تحقق مبدأ المساواة ، مبدأ تكافؤ الفرص . والمساواة تعني ان يتمتع جميع الأفراد بحظ واحد من الفرص المتاحة لهم ، والا يحال بين فرد من الأفراد وبين ان يستغل مواهبه كاملة وامكانياته حتى غائتها ، ولا يكون التفاوت في الاوضاع الاقتصادية والطبقية سببا في تفاوت في الفرص . ومثل هذه المساواة تلتقي التقاء طبيعيا مع الحرية ، وبدونها لا يمكن ان تتحقق . ذلك ان الفرص المتكافئة تعني شيئين : الاول وجود حرية للمطالبة بها وتحقيقها تحقيقا صحيحا وتقويم دل انحراف عنها . والثاني وجود الجو اللازم لتفتح الفرد ، بحيث لا تغل امكانياته بسبب سوء اوضاعه المادية . فالذي يغل الافراد ويحول بينهم وبين كامل تفتحهم ما هو الاوضاع المادية فحسب ، كما قد يخيل ، وانما هو اولا وقبل ذلك ، الاوضاع الروحية الفكرية في مجتمع من المجتمعات . والعبودية الفكرية لا تغل في نهاية الامر عن العبودية الاقتصادية والمادية . بل ان التحرر من العبودية المادية ، كما قلنا ونقول ، لا يهدف في خاتمة المطاف الا للتحرر الفكري والروحي الكامل ، وما هو بالتالي غاية في ذاته . انه وسيلة لتفتيح الانسان ، لبلوغ اعلى مراتب الوعي الانساني . ومثل هذا الارتقاء الى الحرية الفكرية والروحية لا يتوافر الا بتوافر المبدأ الاول من مبادئ الديمقراطية ، يعني مبدأ الحرية عامة .

على ان قولنا بقيام وحدة نامة بين الحرية والمساواة ، يجعلنا ندرك ان لكل منهما حدودا . فالحرية محدودة بمطالب المساواة ، والمساواة محدودة بمطالب الحرية . والميزان الذي يحكم على سلامة تطبيق الديمقراطية هو مدى التوفيق بين المطلبين ، ومدى الاتساق والانسجام بينهما .

وما دنا امام مؤتمر تربوي ، يجدر بنا ان نأتي بمثال على اهمية هذا التوفيق ننتزعه من قصة التعليم في بريطانيا . فكلنا يعلم ان مشكالة التعليم في بريطانيا هي اولا وقبل كل شيء مشكالة التوفيق بين هذين المطلبين الغاليين من مطالب الديمقراطية ، يعني الحرية في التعليم ثم تكافؤ الفرص التعليمية ، ذلك ان التعليم في بريطانيا

فم مند العرون اوسطى على انتاف عدد من المدارس الخاصة الشهيرة ، من مثل مدرسه « ايتون » Eton او « ونشستر » Winchester او « هارو » Harrow او غيرها . وتسم هذه المدارس برقي مستواها التعليمي والحنفي ، ولهذا نابت الموبل الذي يتخرج منه دوما فاده السعيب الانكليزي في مختلف المجالات . سوى ان ارتفاع تكاليف هذه المدارس جعلها وفقا على الطبقة الغنية . اما الطبقة الفقيرة فما نابت تستطيع ان نرسل اولادها اليها ، ونابت تلجا الى المدارس الحكومية التي طت دونها في المستوى . وقد كانت مهمه المصالحين الانكليز ايجاد حل لهذه المعضلة . لقد كانوا حريصين على بقاء هذه المدارس الخاصة ، اخذا بمبدأ الحرية في التعميم ، وحفاظا على مستوى هذه المدارس الرفيع ، لما كانوا في الوقت نفسه ، ولاسيما بعد الثورات الصناعية الحديثة ، حريصين على فتح مجال التعليم المتكافئ امام الطبقة الفقيرة عامه وطبقة العمال خاصة . وبدت المشكالة حادة عنيفه قبيل الحرب العالمية الثانية وبعدها . فاخذنا نقرأ كتابا كتتاب « لوندس Londs » الذي يحمل عنوان « الثورة الاجتماعية صامتة » وكتتاب « فيكرز Vickers » الذي يحمل عنوان « التربية من اجل مجتمع حر » . وفي مثل هذه الكتب اخذت تطالعنا الدعوة الى تحقيق المساواة في الفرص التعليمية ، والبحث في اثر المدارس الثانوية خاصة في تنظيم اتوازن الطبقي في المجتمع الانكليزي . وكانت قوانين التعليم التي صدرت بعد ذلك ، عام ١٩٤٤ ، بمثابة محاولة لايجاد حل لهذه المشكالة . وجوهر هذا الحل الذي انتهى اليه المربون ، من اجل التوفيق بين مطالب الحرية ومطلب المساواة في التعليم ، لاخذ بتوسيع المدارس الحكومية وتحسينها بحيث تضاهي في نهاية الامر المدارس الخاصة . وبذلك تتاح للطبقة الفقيرة فرصة الدراسة المجانية في مدارس لا تغل شانا عن مدارس الخاصة ، كما يفسح المجال امام الخاصة لاختيار مدارس الخاصة عندما يفضلون ذلك . هذا بالاضافة الى الزام كل مدرسة خاصة ان تخصص عددا من المقاعد المجانية للطلاب الفقراء المتفوقين الذين يفدون اليها من المدارس الحكومية العامة . ولسنا ههنا في معرض الحديث المفصل عن هذه المشكالة التي واجهت التعليم في بريطانيا . وقد اكتفينا بهذا العرض الموجز رغبة في تقديم مثال بسيط على اهمية التوفيق بين مبادئ الحرية والمساواة في مجال التعليم وغيره .

وواضح ان هذا التوفيق الذي نعده جوهر العمل الديمقراطي ، لا يجوز ان يكون على حساب اي واحد من المبدان . وواضح ان التساوت في هذا التوفيق امر ضروري ، فلا يجوز ان يؤخذ بالمبدأ الاول الى حين ، ظنا انه سيؤدي فيما بعد الى المبدأ الثاني او ان يؤخذ بالمبدأ الثاني الى حين ، اعتقادا منا بان تعطيل المبدأ الاول لا بد منه من اجل العود اليه عودا سليما فيما بعد .

وواضح ايضا ان هذا التوفيق يرتبط بظروف المجتمع واوضاعه العامة ، وانه يأخذ في كل مجتمع بالتالي الشكل الذي يتلاءم معه . وقد قلنا ونقول ان الديمقراطية لا يجوز ان تفهم كمطلق وان الشكل الذي تتخذه يتحدد اخيرا ببنية المجتمع الذي تطبق فيه . غير ان هذا الارتباط بين تطبيق الديمقراطية (على اساس التوفيق بين مبادئ الحرية والمساواة) ، وبين ظروف

المجتمع ، ينبغي ان يهتم ايضا على حقيقته ، ولا يجوز ان يتحد حجه للتطويع بالديمقراطية . فنسبه الديمقراطية الى الزمان والمكان لا يعني التلاعب بها والاحتياال عيها باسم ظروف الزمان والمكان . والاصل في هذا الارتباط بين الديمقراطية وبين ظروف تطبيقها ان يكون السعي دائما لوصول الى ابر حد ممكن من الديمقراطية ضمن تلك الظروف . وما يعنيه بوجود ظروف خاصة ما هو وجود الظروف التي تحد من المبدأ ، وإنما هو وجود ظروف يحدد المبدأ ضمنها شكلا جديدا . وبدهي ان الظروف التي ناست تطبق فيها الديمقراطية في مثل الولايات المتحدة في بدايه استقلالها ايام جيفرسن ، هي غير الظروف التي تواجه الديمقراطية اليوم بعد تعقد الحياه الحديثه وبعد انتشار الصناعات الكبرى وتطور النظم الاجتماعيه . واكبر محنه تعرض لها الديمقراطية محاولة النظره اليها في ظروفنا الحاضره من خلال الافق الذي كان سائدا في ظروف مابنه تماما . وفيما يتصل بالحرية والمساواة مثلا ، كان الظن لدى كثير من المؤمنين بالديمقراطية في بداية الامر ان ثمة انسجاما ذاتيا بينهما . في حين ان تطور الحياه الحديثه قد بين ان هذا الانسجام لا يقوم من تلقاء ذاته ، وعلينا ان نناضل في سبيله .

- ٨ -

وبعد ، لئن جعلنا هدف القومية العربية الكبير بناء حضارة عربية انسانية نامية ، فلا ينبغي هذا ان يمثل هذا البناء لا يتم عن طريق الاشتراكية وحدها ، بل لا بد فيه من جوهره واساسه ، نعني الوحدة العربية . فالوحدة العربية بالدهاهة هي جوهر القومية العربية : واي بناء للحضارة العربية لا يكون الا ضمنها ومن خلالها . فالحضارة العربية حضارة متكاملة ، والوثبة العربية المنشودة لا تكون كاملة الا عندما ترجع الاوصال الى الاوصال ويعود الوطن العربي الى سابق وحدته ويأبى ذاته من جديد بعد سابق تمزق وشتات . والعرب لن يلفوا ذاتهم ولن يجدوا حضارتهم الا من جسدتهم كاملا ، نعني الوطن العربي الاكبر .

وما دام الامر كذلك . فالديمقراطية ههنا تلعب دورها الكبير . فكلنا يعلم ان العمل للوحدة العربية هو امنية الجماهرة الكبرى من ابناء الامة العربية ، وهو ارادة الشعب في كتلتها الكبيرة ، غير اننا كلنا نعلم في الوقت نفسه ان

وايا كانت الحال ، فالمهم في عملية التوفيق بين مطالب الحرية والمساواة وبين ظروف المجتمع ، ان ندرك ان هذا التوفيق ينبغي ان يكون دوما في اتجاه الديمقراطية لا في اتجاه العضاء عليها باسم الظروف . المهم ان ندرك حقيقة كبرى لا يكون للديمقراطية بدونها معنى ، وهي ان مشكله الديمقراطية مشكله خلقيه ، وانها قضية ايمان خلقي . ولهذا فتطبيقها ايضا ينبغي ان يكون تطبيقا خلقيا ، اي تطبيقا صادقا .

- ٧ -

هذه الحقائق التي تقرها بالنسبة الى الديمقراطية عامة ، تصدق على الديمقراطية في بلادنا العربية . ومن خلالها ندرك من جديد الصلة بين القومية العربية وبين الديمقراطية . ذلك ان القومية العربية حين تصع اهدافها تجعل في رأسها هدفين كبيرين متلازمين ومتآخذين الاول تحقيق الحضارة العربية المنشودة عن طريق تفتيح إمكانيات الانسان العربي ، والثاني تحقيق سعادة المواطن العربي عن طريق افساح المجال امام استخراج ثروات العربي المادية والبشرية ، اي عن طريق الاشتراكية . ومعنى هذا ان القومية العربية تهدف اولا الى تحرير الفرد روحيا واطلاق قوى الابداع لديه ، وتهدف ثانيا الى تحرير الفرد ماديا . اما التحرير الاول فيكون عن طريق الاخذ بمبدأ الحرية خاصة ، واما التحرير الثاني فيكون عن طريق الاخذ بمبدأ المساواة خاصة ، مع التوحيد دوما على ان المبدأين متآخذان لا ينفصل احدهما عن الاخر . واذا شئنا ، تبسيطا للامور ، ان نجتمع المبدأين في واحد قلنا ان هدف القومية العربية الكبير بناء حضارة عربية انسانية نامية ، وهذا البناء يتوسل لبلوغ اهدافه بالاشتراكية . والاشتراكية تعني تحرير الجموع الفقيرة المحرومة من ابناء الوطن العربي من قيود اوضاعها الاقتصادية والاجتماعية السيئة ، تحريرها لا يهدف فقط الى رفع مستواها المادي ، بل يجعل هذا المستوى المادي

مكتبة روكسي

اطلبوا منها الاداب كل اول شهر

مع منشورات دار الاداب

اول طريق الشام

صاحبها : حسن شعيب

هذه الامنية تحول دونها جملة من العوائق ، وتقوم فسي وجهها ضروب من العداة والاحتراب . وما يزال اعداء التومية في خارجها وداخلها ، يبيدون لها ويحاولون الحيلولة دون بلوغها مداها . والكيد للقومية العربية لا يأخذ فقط شكل الكيد السياسي ، وانما يأخذ خاصة شكل الكيد الفكري . فعن طريق تشويه الافكار وتسميمها ، وعن طريق اثاره الشكوك في القومية العربية والوحدة العربية ، يحاول اعداء الوحدة ان يضعفوا من وثبيتها ويؤخروا يوم تحققها . ومعنى هذا ان معركة الوحدة العربية معركة فكرية بالدرجة الاولى ، الى جانب كونها معركة سياسية . ولا يأخذ العمل لهذه الوحدة شكله الحي الفعال الا اذا نشطت الافكار لتوكيده وتثبيته . ومثل هذا النشاط يستلزم الحرية الفكرية حتى اقصاها . وتقييد الحرية الفكرية في هذا المجال لا يفيد في نهاية الامر سوى اعداء القومية العربية وخصوصومها . ان مؤامراتهم ودسائسهم وهمساتهم المخربة هي التي تعشش وتفرخ في جو لا يفسح المجال لتبادل الآراء في النور ، ويدع الفرصة كبيرة للعمل في الظلام . والفكرة الصادقة المؤمنة ، تدرك ان النصر لها في معركة تجري في وضح النهار ، وتصطرع فيها الافكار . لاسيما عندما تكون هذه الفكرة فكرة الجماهير الغفيرة ، فكرة القوى الحية في المجتمع ، التي تشتد حياة بمقدار ما يتاح لها من حرية .

ان القوة الكبرى التي تعتمد عليها فكرة الوحدة

العربية ، نعني قوة الشعب بجماهيره الغفيرة ، تجعل من طبيعة الامور ان يجري العمل للوحدة في جو ديمقراطي . فالوحدة العربية ارادة الكثرة الغالبة وايمانها . وهذا الايمان ينبغي ان ينطلق وينمو ويتوالد كي يتغلب في نهاية الامر على البقية الباقية من الافكار الضالة . وهو هذا الايمان وتوالده يكون في جو ديمقراطي بل يكون بفضل معارضة الخصوم على ان تكون هذه المعارضة في وضح النهار . ان الجو الديمقراطي هو الذي يقوى في نهاية الامر على كسب المعركة ضد الاستعمار واعوانه في كل بلد عربي . ولهذا نجد هذا الاستعمار واعوانه حدرين من اطلاق الحرية ، يتدرون ضد فكر الوحدة التي تعمر في القلوب بتععيد الحريات الديمقراطية .

ان اي فكرة مهما يكن حظها من القوة ، تحتاج دوما الى مزيد من التنمية والاعناء . والفكرة التي تراوح في مداها تتجمد وتفقد عناصر حياة اللازمه لبعانها . واغتناء الفكرة يكون اولاً واخيراً ضمن الجو الديمقراطي .

- ٩ -

ولا حاجة بعد هذا كله الى القول ان الديمقراطية اللازمه لقوميه العربية اللازمه لاهدافها ، ينبغي ان تنبت في جميع مظاهر الحياة العربية ، وان تكون النسع المغذي لكل جانب من جوانبها . ان عليها ان تداخل الحياة السياسية كما تداخل الحياة الاجتماعية ، وان تسيطر على علائق الناس جميعها ضمن المجتمع العربي .

ذلك ان الديمقراطية في بلد من البلدان لا تقاس بمبادئها المكتوبة في واجهة الدساتير والقوانين ، وانما تقاس بالعلاقات العفوية القائمة التي تربط بين الناس ، وتعتبر بطراز السلوك اليومي الذي يدع بينهم . والمسألة ليست مسألة القيم - الاصنام - المنعوشة في الاسفار والنصوص الدستورية ، وانما هي مسألة المعنى الذي تاخذه هذه القيم حين تعبر عن نفسها على شكل علائق انسانية في داخل المجتمع وخارجه .

وما دام الامر اذن في الديمقراطية امر التطبيق الفعلي الذي يدخل جميع انماط الحياة الاجتماعية والسلوك الاجتماعي ، كان لزاما علينا ان نشير الى اهمية تغلغل الروح الديمقراطية في نظم التربية والتعليم . ولن اخترنا الحديث عن مداخلة الديمقراطية لنظم التربية وقدمنا هذا الحديث على غيره ، فما ذلك الا لسببين اساسيين:

الاول اننا امام مؤتمر يعنى ببيان الاسس الفلسفية للتربية العربية . والثاني ان نظم التربية والتعليم تظل السداة الكبرى التي تقوم بها سائر مظاهر الحياة الاجتماعية وتتأثر بها جميع النظم في امة من الامم . ومن نفل القول ان نقطة الاستناد الاساسية في بناء المجتمع هي نظم التربية والتعليم ، وان تغيير ما في انظمة الناس يكون اولاً وقبل كل شيء بتغيير طراز التربية التي تقدم لهم . فالتربية هي اداة تطوير المجتمع ، وهي الوسيلة الاولى لتطبيق اهدافه التي يرسمها لنفسه . وما العمل التربوي في نهاية الامر الا تلك المحاولة لتحقيق مصير الانسان وغاية الوجود الانساني على نحو ما يتصورها مجتمع من المجتمعات . والمهمة الاولى

ظَهَرَ حَرِيدًا كِتَابُ

الْبَيْعِ فِي التَّرْبِيَةِ الْعَرَبِيَّةِ

تأليف أوبير

ترجمة الدكتور عبد الله عبد الدائم

●

أعمق كتاب في فلسفة التربية وأصولها

●

يطلب من جميع المكاتب

على عاتقها وبجهدا الذاتي .

ويدهي ان هذه الروح الديمقراطية ينبغي ان تداخل التربية في جميع مراحلها وفي شتى تفصيلاتها ، اذا ارادت ان تكون تربية حقة . ونتائج مثل هذه الروح الديمقراطية في ميدان العمل التربوي اوسع من ان تحصى . ان صداها ينعكس على المناهج وطرائق التدريس واساليب النشاط المدرسي . بل هو ينعكس على تنظيم التعليم جملة . ومن اهم النتائج التي تترتب عليها . العناية بالكشف عن قابليات المتعلمين وتوجيههم شطر الدراسات التي تلائم هذه القابليات .

وجدير بالتأمل ان هذه الصلة بين التربية والديمقراطية خير مثال يمكن ان يضرب ليعين اهمية العناية بالاساس الفلسفي للتربية . ان وجه الامور في التربية والتعليم تخضع لانقلاب شامل حين نحدد لها هذا الهدف الديمقراطي وحين نربط بين هذا الهدف الديمقراطي وبين اهدافه القومية العربية . ان اتخاذ المتعلم غاية لا وسيلة ، وجعل الهدف من التعليم تفتيح الانسان على الحرية ، على التفكير الذاتي ، امور تغلب التعليم رأسا على عقب ، وتفرض طائفة من النتائج في طرائق التدريس والمناهج والكتب والامتحانات وغيرها . ان فلسفة التربية تأخذ كامل معناها ضمن هذا الجو . انها تغدو بحق فلسفة الانسان ، البحث في مصيره وغايته ، بغية تكييف كل شيء في التربية وفق ذلك المصير وتلك الغاية . وعندما نؤكد ان غاية التربية الوصول بالكائن الى ذروة الوعي المستقل لذاته وجوهر وجوده ، فنحن نطلق في الواقع مبدأ

والاخيرة للتربية هي ان تقود الانسان الى غايته وهدفه الحقيقي كإنسان ، ان تجره الى ما يصبو الى ان يكونه . على ان اثار التربية بهذا الحديث عن صلة الديمقراطية بها ، يعني شيئا اعمق من هذا ، ينقلنا توا الى صلب الموضوع الذي كنا بصده . نعني الصلة بين الديمقراطية والحياة القومية . ذلك اننا حددنا هدفا للحياة القومية الوصول الى بناء الحضارة العربية النامية عن طريق تفتيح الانسان العربي تفتيحا كاملا . وبهمة التفتيح هذه هي مهمة التربية قبل اي شيء اخر . والاتفاق تام ههنا بين مهمة الحياة القومية وبين التربية . فالتربية الحقة هي التي تحقق الكائن في نهاية الامر اسمى درجات التفتح الانساني واقصى مراتب الوعي الروحي . وغاية التربية ليست في تفتيح القوى الطبيعية لدى الكائن على نحو ما يرثها ويجدها معطاة له من قبل نوعه ، ولا هي في دمج الكائن مع حياة مجتمعه وتراث مجتمعه . ان غايتها الحقة هي ان تعتمد على طبيعته النوعية البيولوجية وعلى اثر المجتمع وتراثه من اجل الرقي بالكائن في نهاية الامر الى شأو يجاوز الطبيعة ويجاوز المجتمع ، هو شأو التفتح الروحي ، التفتح على القيم المثلى ، على الحق والخير والجمال . ان مهمتها ان تتكئ على الطبيعة والمجتمع ، لترد الكائن بعد ذلك الى ذاته ، الى ما يصبو اليه كإنسان . ومثل هذه الاوبة الى الذات التي هي هدف التربية لا تتم الا اذا ساعدت التربية الكائن على ان يملك موقفا مستقلا ونظرة مستقلة ، عن طريقها يسيطر على الاشياء طبيعية كانت او اجتماعية .

دار الاداب تقدم

سلسلة اجوائز العالمية

اروع الروايات التي فازت بجوائز عالمية وترجمت الى عدة لغات ، ولا غنى للقارئ العربي ، اذا اراد ان يستكمل ثقافته الادبية ، من الاطلاع عليها .

ويسر ((دار الاداب)) في بيروت ان تضطلع بهذه المهمة ، فتقدم قريبا جدا ، وبالتالي ، حلقات هذه السلسلة ، مترجمة الى العربية ترجمة دقيقة امينة باخراج انيق .

ترقبوا الاعلان عنها

في اعدادنا القادمة

وهكذا يلتقي العمل التربوي باعمق اعماق الديمقراطية . انه واياها يهدفان الى خلق الوعي الذي يقوم به الكائن بنفسه . انه يقول وجز ، يؤمن بالوسيلة الكبرى لتكوين الانسان ، نعني الحرية . فالحرية ههنا تعني تحرير الكائن تحريرا حقيقيا ، وذلك عن طريق امتلاكه لذاته وامتلاكه لافكاره . ان كل وعي انساني يصبو الى ان يملك نفسه امتلاكا كاملا . والتربية تقدم العون للكائن كيما يصل الى هذه الصبوة ، كيما يكون فعلا سيد افكاره وما يؤمن به . انها تأخذ بيده لا لتقدم له زادا معطى ، ومعرفة مبيتة ، ولكن لتجعله قادرا على اقتناص المعرفة بنفسه واتخاذ المواقف بقوته الذاتية وتقويم الاشياء عن طريق النظرة الخاصة التي قرت لديه . ان التربية الحقة ليست طعما تقدمه للآخرين وانما هي عون نجعلهم عن طريقه يحققون صواب وجودهم الحقيقية . انها لا تطبع فيهم ، الا ما يملكون الرغبة في امتلاكه . وهدفها الاخير تحقيق استقلالهم وتفتيح ذواتهم ، بحيث تكون هي الخالقة لقيمها وافكارها وموافقها .

وبين ان مثل هذه الاهداف تلتقي بالاهداف الديمقراطية . فلقد راينا كيف ان اهم عنصر في الديمقراطية عنصر احترام الشخصية الانسانية بحيث تتخذ غاية لا وسيلة ، وبحيث نبعدها عن كل قسر وعن كل رأي مفروض ونثير لديها القدرة على التفكير في الاشياء

ديمقراطية تهدف الى خلق حياة قومية سليمة ، وبين قومية تتخذ الديمقراطية وسيلة لبلوغ اهدافها الاساسية ، نغني تفتيح الانسان العربي واطلاق طاقاته . انها تضع لنفسها غاية كبرى هي تفتيح انسانية الانسان العربي ضمن اطاره القومي وعن طريق هذا الاطار . وعند ذلك لا تأخذها نظرة قومية ضيقة تجعلها تتخذ القومية مجرد شكل صارم قاس تستباح في سبيله حتى حقوق الانسان وحرياته الاصيلية ، كما لا تأخذها نظرة ديمقراطية عائمة ليست بذات حدود ، تجعل من الحرية مطلقا لا صلة له بشيء ولا شأن له بالظروف القومية التي تجتازها الامة .

انها تقف وقفة سليمة ، حين تتخذ من تكوين الانسان من اجل حياته القومية وسيلة لتفتيح انسانيته ووعيه الانساني ، وسيلة لتحرره لا لعبوديته . وبذلك تلتقي التقاء خصبيا مع المعنى الاول والاخير للقومية العربية ، نغني العمل على تفتيح الانسان العربي ورفعته الى اعلى مراتب الوعي الانسان والابداع الحضاري .

ان تاليه المجتمع ، سواء كان مجتمعا قوميا ، او غير قومي ، آفة كبرى وقعت فيها النظريات المجموعية . وهو الذي قاد في نهاية الامر الى الاخذ بالاساليب التحكيمية في حكم الافراد . والفكرة التي اطلقها « هيجل » وتلقفها العديد من الحكام والفكرين بعد ذلك وعلى رأسهم ماركس اتت اسوا الثمرات في تاريخ الانسانية وجرت كثيرا من المآسي . ان قوامها جعل الفرد آلة ضمن الكيان الكبير ، كيان المجتمع والدولة ، وانكار وجوده كذات مستقلة .

والنظر الى المجتمع كحامل لفكرة التاريخ ممثل لها ، والنظر الى الفرد كذرة ما عليها الا ان تنساق مع منطلق التاريخ . لقد كانت رد فعل على النظرة الفردية ، وكانت ككل رد فعل ، فعالية مفرطة . والنظرة الديمقراطية السليمة هي النظرة التي تجعل الفرد جزءا من المجموع ، دون ان تنشئ اهداف الفرد ومطالب وجوده الانساني . انها تجعل اندماج الفرد مع المجتمع كما قلنا ونقول مشروطا بمقدار الحرية التي تمنح له كيما يتجاوز هذا المجتمع ويخلقه خلقا جديدا .

ان الدرس الاكبر الذي تعلمنا اياه الديمقراطية هو ان العمل لها كفاح ونضال من اجل التوسع المتصل في تطبيق الوسائل الديمقراطية وطرقها الاساسية ، نغني المشاورة والافتناع والمفاوضة والتواصل والتعاون الفكري والعنصر الخصب الذي تستمدته القومية العربية من الايمان الديمقراطي ، هو الاعتقاد الجازم بان تفتح القومية العربية تفتحا يؤدي الى خلق الحضارة العربية المنشودة ، رهين بمقدار قدرتها على اشاعة اكبر حظ ممكن من الروح الديمقراطية ضمن ظروف المجتمع العربي الراهنة ، ان شد الواقع العربي شطر الديمقراطية وتطوره يوما بعد يوم ليكون منفثا لجرعات جديدة منها ، عن طريق اصطناع الوسائل الديمقراطية نفسها ، هي المهمة الشاقة الصبور الملقاة على عاتقنا ، من اجل بلوغ الاهداف الحقيقية لقوميتنا العربية ، نغني بناء الحضارة العربية الموحدة المبدعة (١٠) .

عبدالله عبد الدائم

(١٠) بحث قدم الى حلقة دراسة اسس التربية في العالم العربي التي انعقدت في القاهرة في الشهر الماضي .

كبيرا من شأنه ان يحدث اضخم الاثار في عملية التربية . اننا بذلك ننأى عن تلك الاهداف الجزئية والضيقة التي تعين للتربية ، حين يقال بان هدفها تكوين المواطن الصالح او تكوين الانسان كما يريد المجتمع ان يكون . اننا نبين ان ذلك ان الاندماج مع المجتمع امر محتوم لا بد منه ، وخطوة ضرورية في كل تربية ولكن شريطة الا يكون هذا الاندماج مقصودا لذاته ، وان يهدف في نهاية الامر الى تحرير الفرد حتى من قيود المجتمع ، ليرقى بم الى وعي الامور وعيا جيدا مستقلا بأخذه على عاتقه وعلى حسابه . ان المجتمع بالقياس الى التربية الحقبة مرحلة ، ومرحلة لازمة . غير انه ليس غاية المطاف . وقوى التجديد في المجتمع لا تخلق الا يوم يصبح الفرد على خط من الوعي الروحي والاستقلال الفكري يمكنه من اعادة النظر في قيم مجتمعه ، ليقبل منها ما يقبل حرا مستقلا ، ليغير منها ما يغير حرا مستقلا .

ان المجتمع لا يتجدد الا عن طريق هذه القوى الروحية الفكرية الجديدة التي تخلق لدى افرادها عن طريق التربية . وهذه القوى الروحية الجديدة هي ابنة الاستقلال ابنة الحرية .

من هنا نرى ان ربط التربية بالمبدأ الديمقراطي ، يجعلها تربية خلاقة ، ويؤدي الى توفيق عميق بين مطالب الاندماج مع المجتمع ومطالب التجدد الاجتماعي والتقدم الانساني . فالتربية الديمقراطية لا تكون الا بدمج الكائن في حياة الزمرة الاجتماعية التي ينتسب اليها وفي تراث هذه الزمرة ، ولكنها لا تكون في الوقت نفسه الا برفع الفرد الى مستوى يستطيع ان يطل منه على حياة الزمرة اطلالة من ملك وعيا مستقلا ، وتقويما شخصيا للاشياء ، قادرا على الحكم عليها حكما حرا جديدا . ان الاندماج الحق مع مطالب المجتمع يكون بتجاوزه ، بتجاوز اتباع الجامد ، الى الابداع المستقل والتفكير الحر .

- ١٠ -

وبعد ان مهمة القومية العربية مهمة مبدعة خلاقة . ان رسالتها الاولى خلق حضارة مبدعة . وتكوين هذه الحضارة المبدعة تفترض اولا وقبل كل شيء ، العناية بالعنصر الانساني وتفتيحه وافساح المجال له كيما يعطي كامل مداه ويطلق شامل طاقاته .

وهذه العناية بالعنصر الانساني تتطلب اول ما تتطلب جوا ديمقراطيا يسر له التفتح والازدهار : فالجو الديمقراطي هو الرئة التي تنفس منها قوى الابداع . وهذا الجو الديمقراطي يعني امرين متلازمين . يعني ابعاد العوائق المادية التي تحول بين الفرد وبين عطاءه ، ويعني تحقيق اطار من الحرية في مجال التفكير والتعبير والاعتقاد ، يمكن للتفتح ويفسح المجال الدائم للتقدم وتجاوز الذات . والتربية دون شك هي خير اطار ملائم لاشاعة هذا الجو . ففي المهاد الذي يتم فيه خلق الاساس المكين للديمقراطية ، عن طريق تربية الكائن تربية مستقلة ، فيها احترام لذاته ، وفيها تفتيح له من داخل ، لا قسر من خارج .

وهكذا تجد التربية امامها اساسين متينين ، يقوم التلازم بينهما ، هما الاساس الديمقراطي والاساس القوي . انها في نهاية الامر تلغى نفسها عند نقطة الالتقاء بين